وقف مركز مكة العالمي للهدى القرآني
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

المسار المجازي في القرآن الكريم: البناء العقدي للإنسان

اسم الباحث/ـة

د/ إيهاب محمد أحمد حسن

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله منزل القرآن معلم البيان. والصلاة والسلام على رسول الرحمة.

أما بعد:

الإسلام هو الدين الخاتم، والقرآن كتابه الذي يخاطب الثقلين، ويمتد ذلك الخطاب حتى قيام الساعة، وفي ذلك الخطاب يتلقى الإنسان في القرآن الكريم ما يعرفه بربه سبحانه، ويتلقى المسلم تعاليمه التي يصحح بها عقيدته وسلوكه.

وفي نفس كل إنسان شعور بأن الحياة طريق يمشي فيه بين ميلاده وموته، ومن هنا جاء مبدأ المسار المجازي ليتوافق مع ذلك الشعور الإنساني المتأصل داخل النفس البشرية. ومن هنا أيضاً نبعت أهمية موضوع هذا البحث، فالمسار المتخيل يحيل على حياة مادية يعيشها الإنسان، والمسار الذي خطه القرآن للثقلين مسار مجازي يتوافق مع ذلك المسار المتخيل.

ورب قائل: ذاك أمر أفرغت فيه الجهود وشابت في سبيله رؤوس العلماء، وأفرغت فيه المحابر، فيجاب عليه بأن القرآن كتاب معجز متجدد، ما يزال يدهش البشرية كل يوم بجديد، وهذا البحث محاولة لاستقصاء ذلك الجديد المرجو في مظان المسار المجازي، فكل البحوث السابقة نظرت في ذلك المسار، ولكن النظرات تشتت ما بين قديم وحديث، وما بين فقيه وداعية ومفسر، كلهم يسعون لتنظيم مسار ذلك المخاطب، وكلهم تثمر جهودهم فالأحكام واضحة، ومكارم الأخلاق ما تزال تسعى بين أيدي المؤمنين وبأيمانهم.

إلا أن أهمية هذا البحث تكمن في نقاط دقيقة وجدت آلاف الالتفاتات إليها، لكنها لم تجد تجميعاً لمنهج يوضح طبيعة تعامل الكتاب الحكيم مع السائرين على المسار المجازي، فلم أعثر على دراسة تناولت الصراط في القرآن الكريم من جهة كونه عامل بناء إرشادي للشخصية الإنسانية، وعامل بناء سلوكي وعقدي للإنسان المسلم. فجاء هذا البحث محاولة متواضعة للنظر في

طبيعة المسار المجازي وإطاره النظري والفكري، وطبيعة التراكيب اللغوية التي صيغ فيها الحديث عنه.

كل أولئك كان واقعاً علمياً في بحوث الأسلاف والمعاصرين، لكن السلوك ظل هو المبتغى دون النظر في إطاره الفكري وسياقات اللغة التي حملت الإرشاد إليه. ولست مدعياً إلا أني قد أعدت ما قاله الأوائل. لكن في صورة جمعت الأركان، ووضعت الإطار النظري لما اجتهدوا في تطبيقه.

وقد قام منهج هذا البحث على فكرتين:

الفكرة الأولى: سهولة المقال وبساطته، مع الميل إلى الحراك داخل المعهود المقبول، بعيداً عن إغراب القول في زمان أمست فيه غرابة الفكرة أقرب طريق لانتشارها.

الفكرة الثانية: العودة للغة في طابعها المعجمي والتركيبي، والعودة لما قاله المفسرون قديماً وحديثاً تاركاً الضرورة العلمية تقودني لاختيار المرجع، مع إيلاء الأهمية للقديم قبل الحديث، ومع الأخذ بالاعتبار أن الأمور التوقيفية ليست مجالاً لمستحدث القول أو بعيده عن الحق. وقد حاولت ما وسعني ألا آتي بفكرة لا أصل لها لدى السابقين إلا إن كانت في نطاق المقبول الذي لا خلاف عليه من واضح لغة الكتاب الحكيم.

أما خطة البحث فقد كانت كما يلي:

مقدمة.

المبحث الأول: الصراط: البناء العقدي والسلوكي

المبحث الثاني: البدايتان: عقيدة المسلم القرآنية

المبحث الثالث: الفرق اللغوي بين الصراط والسبيل

خاتمة: التوصيات والنتائج

المبحث الأول: الصراط: البناء العقدي والسلوكي

توطئة:

يقتضي مفهوم المسار أن يكون هناك سير وأن يكون هناك سائر، ولأن الصراط طريق غير مرئي فالسير فيه دون شك سير مجازي، وهو كذلك مفهوم مجازي، قال الطاهر بن عاشور في تفسير الفاتحة: "والصراط في هذه الآية مستعار لمعنى الحق الذي يبلغُ به مدركُه إلى الفوز برضاء الله، لأن ذلك الفوز هو الذي جاء الإسلام بطلبه" (١)

وقد أشار الحكيم الترمذي إلى المسار المجازي بحديثه عن أن المشي على نوعين: "مشي هو نهوض القلب ونيته وقصده إلى الله في الأعمال ... ومشي على القدمين" (٢)

وفي التاريخ الفكري لسلف الأمة جهود دلت على مجازية هذا المسار لعل أقدمها كتاب منازل السائرين لعبد الله الهروي الملقب بشيخ الإسلام، فمن الواضح أنه مبني على مبدأ مجازية السير ومراتبه، وقد تحدث عن رتبة سماها أخذ القاصد في السير (٣)، بأن معناها يتجسد في قول الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة رضي الله عنهم "سيروا، هذا جمدان، سبق المفردون، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيرا والذاكرات" (٤)

وقد شرح الحديث يحي بن هبيرة بقوله: "فيعني صلى الله عليه وسلم أن السير والسبق إنما هو بالذكر، فهو سير بالهمة، فهو يُشَبِّه قطع مفازات الأعمار بسعي الأقدام

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، ١/١٩٠

(٢) تحصيل نظائر القرآن، الحكيم الترمذي، تحقيق حسني نصر زيدان، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م، ص ٣٢.

(٣) منازل السائرين، عبد الله الهروي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ص٧

(٤) صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ٤/ ٢٠٦٢

في قطع مفاوز الأرض" (١)

وقد أخذ ابن القيم فكرة مجازية السير، وبنى عليها كتابه "مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين"، وهو عبارة عن شرح لكتاب "مازل السائرين" للهروي (٢)

وكتابا الشيخين "الهروي، وابن القيم" يقومان على تفصيل فكرة المسار المجازي بعد تنزله السلوكي، فهما يقيمان نظرية سلوكية ترشد لسلوك المسلم ليصل إلى مقصده في مسيره إلى الله. ويقوم العنوانان على فكرة المسير: السائرين، والسالكين، فيقال "سلكت الطريق أسلكه"(٣)

وربما نجد ما فعلاه مختصراً في قول ابن تيمية:

"ثم إن الصراط المستقيم هو أمور باطنة في القلب: من اعتقادات، وإرادات، وغير ذلك، وأمور ظاهرة: من أقوال، أو أفعال قد تكون عبادات، وقد تكون أيضا عادات"

ومنهج الشيخين يقوم على فكرة المسار المجازي وارتباطه بلفظ "الصراط"، ويؤكد الاهتمام العلمي ببناء الشخصية المسلمة في عقيدة المسلم وسلوكه، وليست مهمة هذا البحث التعقيب على ما فعلاه، بل سيبحث في ماهية المسار المجازي، وحقيقته التي قررها الكتاب الحكيم.

أما عن تعريفاته الاصطلاحية وآراء المفسرين فيه فقد ورد كل ذلك في موسوعة التفسير الموضوعي:

---

(١) الإفصاح في معاني الصحاح، يحيى بن هبيرة، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، الرياض، ٢٨٣/٨.

(٢) انظر مقدمة التحقيق: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، ١٥/١

(٣) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق عوض مرعب وفاطمة محمد أصلان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م، ص ٤٦٢.

الصراط [١]، مما أغنى عن ذكرها هنا، بل سيكون التركيز في هذا البحث على كل ما يرتبط بمبدأ بناء الإنسان.

الصراط لغةً:مبدأ الحديث عن الصراط باعتباره مساراً مجازياً سينطلق دون شك من اللغة، ويبدأ انطلاقه بالقراءات. حيث تعددت قراءات الصراط في "الصاد" على ثلاثة أوجه: السين، والصاد، والزاي على الإشمام وعلى الزاي الخالصة. [٢] ،وقال الزمخشري: والصراط من قلب السين صاداً لأجل الطاء، كقوله: مصيطر، في مسيطر، وقد تشم الصاد صوت الزاى، وقرئ بهن جميعاً، وفصحاهن إخلاص الصاد، وهي لغة قريش وهي الثابتة في الإمام" [٣]

وقال ابن خالويه: قوله تعالى: الصِّراطَ. تقرأ بالصاد والسّين وإشمام الزّاي. فالحجة لمن قرأ بالسّين: أنه جاء به على أصل الكلمة. والحجة لمن قرأ بالصّاد: أنه أبدلها من السّين لتؤاخي السّين في الهمس والصّفير، وتؤاخي الطاء في الإطباق، لأن السين مهموسة والطاء مجهورة، والحجة لمن أشمّ الزّاي: أنها تؤاخي السّين في الصفير وتؤاخي الطّاء في الجهر" [٤]

مما تقدم يتضح لنا أن أصل اللفظ هو السين، والصاد والزاي جاءتا لاعتبارات صوتية، ومن جهة أخرى فقراءة الصاد هي لغة قريش، وهي الثابتة في المصحف الإمام. وقد اتفقت المعاجم على الحديث عن الصراط تحت مادة (سرط)، وهذا إجماع يجعلنا نطمئن لأن الأصل الموصل إلى المعنى اللغوي والاجتماعي هو (سرط)، قال ابن فارس:

---

(١) انظر موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: الصراط، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، ١٤٤٠هـ، المجلد الحادي والعشرين، ص ٨ وما بعدها.

(٢) انظر: شرح طيبة النشر في القراءات، شمس الدين بن الجزري، تحقيق الشيخ أنس مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م، ص ٤٩.

(٣) الكشاف، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م، ٢٩/١

(٤) الحجة في القراءات السبع، الحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ص ٢٠.

(سرط) السين والراء والطاء أصل صحيح واحد، يدل على غيبة في مر وذهاب. من ذلك: سرطت الطعام، إذا بلعته ; لأنه إذا سرط غاب. وبعض أهل العلم يقول: السراط مشتق من ذلك؛لأن الذاهب فيه يغيب غيبة الطعام المسترط" (١) .

وقال الزمخشري:(السراط) الجادة، من سرط الشيء إذا ابتلعه، لأنه يسترط السابلة إذا سلكوه، كما سمى: لقماً، لأنه يلتقمهم" (٢)

إن لفظ الصراط لفظ عربي ويدل على ذلك تعدد اللغات في النطق به بين الصاد والسين والزاي، ويدل عليه أيضاً تعدد الاشتقاقات من الجذر سرط، وهنا تستوقفنا مقولة أن الصراط لفظ مأخوذ من (strata) اللاتينية (٣) وهو رأي قديم تحدثت عنه كتب علوم القرآن (٤)، وقد رد هذا الرأي "عبد الكريم أمين" بكثير من الأدلة المنطقية واللسانية، فهو يستغرب "أن يلجأ العرب، والبدو بخاصة إلى استعارة كلمة لاتينية للدلالة على الطريق مهما كانت ضخامته واستقامته. لم تفتقر اللغة الفصحى إلى أسماء الطرق والأسفار، الطريق يؤدي بهم عبر المهاوي والأخطار إلى الموارد والمراعي، إلى الحلول والسلامة، أما العدول عن الهدى فيفضي بهم إلى الضلال، إلى عذاب الجوع والظمأ" (٥).

وربما أدت عروبة اللفظ إلى الحديث عن أمر قد يبدو غريباً، فلفظ الصراط لفظ دال على مفرد، ورغم تحرك مفهوم الاشتقاق في ساحة اللفظ فإن ذلك الاشتقاق لم يورد للفظ جمعاً، ولم أعثر له على جمع في شاهد عربي جاهلي

(١) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ص ٤٩١.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ٢٩/١

(٣) أصالة لفظ الصراط: أدلة وبصائر، أمين عبد الكريم، مجلة كلية الشريعة، جامعة القرويين، العدد ٢٠، ١٩٩٥م، صفحات: ٨٥-١٠٦.

(٤) الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤٢٦هـ، ٩٥٦/٣.

(٥) أصالة لفظ الصراط: أدلة وبصائر، أمين عبد الكريم، ص ٩٢.

ولا إسلامي لشعر أو نثر، فترى أبا هلال يؤكد ذلك بقوله: الصراط هو في العربية الطريق الواضح السهل، يذكر ويؤنث، مثل: الطريق، والسبيل ولم نسمع له بجمع، والقياس: أصْرِطَة، وصُرُط" (١)

وقال الألوسي:" ويجمع في الكثرة على صراط ككتاب وكتب، وفي القلة قياسه أصرطة، هذا إذا كان الصراط مذكراً، وأما إذا أنث فقياسه أفْعُل نحو ذراع وأذرع" (٢) .وقال النحاس:"وجمعه في القليل أصرطة وفي الكثير صرط" (٣)

وقال ابن سيده: وكتابُ الله تَعَالَى نزل بتذكير الصراط وجمعُه فِي القبيلين أَصْرطة وصُرُط" (٤) .

فهذه الأقوال تؤكد أن اللفظ لم يعرف له جمع، فقد أقروا جميعاً بأصالة الاشتقاق لكنهم لم يوردوا شاهداً، فما السر وراء هاتين السمة؟ إن الصراط في القرآن كله لله وحده لذا فهو صراط واحد؛ لأنه يسير إلى رب واحد، قال ابن القيم عن الصراط في سورة الفاتحة: وذكر الصراط المستقيم مفرداً معرفاً تعريفين: تعريفاً باللام، وتعريفاً بالإضافة، وذلك يفيد تعينه واختصاصه، وأنه صراط واحد، وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فوحد لفظ الصراط وسبيله، وجمع السبل المخالفة له" (٥)

---

(١) الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري، تحقيق محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، ص٢٨٦

(٢) روح المعاني، شهاب الدين الألوسي، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م، ٩٥/١.

(٣) إعراب القرآن، أبوجعفر النحاس، تحقيق خالد العلي، دار المعرفة، بيروت الطبعة الثانية، ١٤٢٩،٢٠٠٨م، ص ١٤.

(٤) المخصص، علي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق مكتب التحقيق بدار إحياء التراث العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، ١٤٢/٥.

(٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، ٣٧/١.

وقال أيضاً في اجتماع الجيوش الإسلامية:"فإن الحق واحد وهو صراط الله المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواه ... وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[الأنعام: ١٥٣]، فجمع سبل الباطل ووحد سبيله الحق" (١)

وتلك قمة التأكيد على أهمية بناء عقيدة المسلم، وهو بناء لمفهوم التوحيد الذي يعبر عنه في لغة القرآن لفظ لا جمع له، لا في القرآن ولا خارجه، وهي نتيجة أطمئن إليها طمأنينة علمية، يؤيدها ما ذكره الباحثون في أمر اللفظ، فحديثهم عن القياس يفهمنا أنهم لم يعثروا على شاهد، فذهبوا يقيسون على ألفاظ أخرى، أو قل على قاعدة صرفية بنائية، المهم ألا وجود لشاهد يؤيد قياسهم وإلا لساقوه.

سؤال الهداية:

يسأل المسلم ربه الهداية إلى الصراط، وهذا يقتضي أن يلقن المسلم أن السؤال يقتضي تجنب نقيض المطلوب، لذا فنحن أمام ثلاث طوائف بشرية:

المنعم عليهم، والمغضوب عليهم، والضالون:

ستجد اتفاقاً لدى المفسرين على أن هذا الإنعام يفسره قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء: ٦٦ – ٦٩]

جاء في تفسير ابن كثير: "عن ابن عباس: صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك، من ملائكتك، وأنبيائك، والصديقين،

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية، ابن قيم الجوزية، تحقيق زائد بن أحمد النشيري، عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٣١هـ، ١/ ٤٣

والشهداء، والصالحين" [١] . ولكن تفصيلات الكتاب الحكيم تمنحنا المزيد، وذلك عبر البحث عن مفهوم الإنعام، الذي يحملنا إلى لحظة اكتمال الدين: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة: ٣].

فأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم منعم عليها، فمن يتبع تفاصيل البناء العقدي والسلوكي المكتمل فقد دخل ضمن المنعم عليهم، ويدلك على ذلك الرأي القائل إنها آخر ما نزل من القرآن، وأنها قد نزلت في حجة الوداع [٢]، ومع الانتباه لتناسب صدر الآية بختامها سنصل إلى حقيقة الإكمال والاكتمال،

فسياق النزول حجة الوداع، والحج هو الركن الخامس للإسلام، وبه يكتمل الدين، فضلاً عن تناسب (لغوي) بين الإكمال وتحليل الطعام وتحريمه، فإذا عرف المسلم ما يحل له من الطعام وما يحرم، فهذا يقتضي أن أمر الهداية الروحية قد اكتمل قبل النظر في الأطعمة [٣]،

إنها إشارة مؤكدة لاكتمال بناء الإنسان المسلم عقيدة وسلوكاً، وهاهنا سر اكتمال النعمة التي يعيدنا ذكرها إلى صراط المنعم عليهم.

ومن جهة أخرى إن كان الاهتداء إلى الصراط هو المطلوب فقد وضح ذلك في القرآن نفسه في سورة الفتح:

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٤٠/١

(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ١٨٨/١

(٣) انظر التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٠٣/٦

﴿ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٢﴾ [الفتح: ٢]

الآية تخاطبنا كما تخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم، فإذا سألنا الله تعالى صراط المنعم عليهم فالآية ترشدنا إلى اتباعه صلى الله عليه وسلم فقد تمت نعمة ربه عليه بالفتح الدنيوي والغفران الأخروي.

وفي نفس السورة خطاب للصحابة رضي الله عنهم:﴿ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ۝١٩ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾[الفتح:١٨-٢٠]

إنهم أهل بيعة الرضوان، ومعنى ويهديكم هنا "ويسددكم أيها المؤمنون طريقاً واضحاً لا اعوجاج فيه، فيبينه لكم، وهو أن تثقوا في أموركم كلها بربكم" (١)

ولنتأمل في التضاد بين التركيبين: (غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ - لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ) (وَلَا ٱلضَّآلِّينَ - وَيَهۡدِيَكُمۡ)، القرآن يرشدك إلى أهل الاهتداء والرضوان فاتبع سبيلهم.

ومما يجب أن نلفت إليه النظر أن القرآن كله لا يحمل إشارة إلى جماعة بشرية هديت إلى الصراط المستقيم سوى هؤلاء النفر الكرام.

ويتعمق الأمر لأبعد وأكبر من ذلك في آية شديدة الارتباط بسياق الفاتحة

﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٢٢ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٢٣﴾ [النحل: ١٢٠ – ١٢٣].

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٨٣/٢١

(ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ - وَهَدَيۡنَٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ) (صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ- شَاكِرًا لِّأَنۡعُمِهِ) ، فقد هداه الله "وأرشده إلى الطريق المستقيم، وذلك دين الإسلام لا اليهودية ولا النصرانية" (١) وهما أهل الغضب والضلال. ثم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم باتباع ملته:

﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وانظر إلى فعل الأمر" قُلۡ"، فالأمر ليس من الرسول صلى الله عليه وسلم، بل هو تقرير إلهي بتلك الهداية. فالصراط إبراهيمي محمدي. وأصل الحنيفية الميل والاستقامة معاً "والحنيف: المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق" (٢)

إن البناء العقدي للمسلم يفضي به إلى مرجعية تاريخية تتمثل في أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وهذا ما يفضح ما طال الديانتين السابقتين من التحريف، ويمنح كل باحث عن الحق تعريفاً عقدياً تاريخياً لذلك الحق.

(١) الطبري، جامع البيان، ٣٩٣/١٤

(٢) الكشاف، الزمخشري، ص ٩٩

المبحث الثاني: البدايتان: عقيدة المسلم القرآنية.

كيف بدأ ذكر الصراط في القرآن الكريم؟ وكيف انتهى؟ وما علاقة البدايات بالنهايات؟.

بتتبع المسار التاريخي لأحداث القرآن، وبالنظر في ترتيب سور القرآن في المصحف نصل إلى أن أمر الصراط قد بدأ في القرآن الكريم بدايتين:

البداية الأولى: تاريخ العداء:

إذا رتبنا الأحداث القرآنية ترتيباً تاريخياً فإن أول ورود لذكر الصراط في تلك الأحداث كان قبل الهبوط للأرض، في الحوار بين المولى سبحانه وإبليس الذي رفض السجود لآدم عليه السلام، وذلك في موضعين:

الذكر التاريخي الأول للصراط:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٣ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ٤٤ ﴾ [الحجر: ٣٩ - ٤٤].

هذا أول ورود للصراط في أحداث الكتاب العزيز، وهو بمثابة الإخبار الأول لإبليس بمحدودية سلطانه في الإغواء، وتلك الأولية تأتي مصحوبة بإشارة إلي المسار المجازي: "هَٰذَا صِرَٰطٌ"، قال الطاهر بن عاشور: فالإشارة إلى ما يؤخذ من الجملة الواقعة بعد اسم الإشارة المبينة للإخبار عن اسم الإشارة وهي جملة إن عبادي ليس لك عليهم سلطان، فتكون الإشارة إلى غير مشاهد تنزيلاً له منزلة المشاهد، وتنزيلاً للمسموع منزلة المرئي. ثم إن هذا المنزل منزلة المشاهد هو مع ذلك غير مذكور لقصد التشويق إلى سماعه عند ذكره. فاسم الإشارة هنا بمنزلة ضمير الشأن، ... "إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ" لتضمُّنه أنه لا يستطيع غواية العباد الذين أخلصهم الله للخير، فتكون جملة :

"إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ"

مستأنفة أفادت نفي سلطانه"[١]

أما " عَلَيَّ" فقد قيل إنها " بمعنى: هذا طريق إليّ مستقيم" [٢]

وقال القرطبي: فكان معنى الكلام: هذا طريق مرجعه إلي فأجازي كلاً بعمله، يعني طريق العبودية. وقيل: المعنى على أن أدل على الصراط المستقيم بالبيان والبرهان" [٣] .ويأتي ابن عاشور بالقول الفصل: "والمعنى أن الله وضع سنة في نفوس البشر أن الشيطان لا يتسلط إلا على من كان غاوياً، أي مائلاً للغواية مكتسبا لها دون من كبح نفسه عن الشر" [٤].

علم إبليس أن الله سبحانه لن يترك له خليفته تركاً مطلقاً، فقد كان ضمن المخاطبين بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة: ٣٠]. وقوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحجر: ٢٨ – ٣١]

وقد دلت الأخبار الواردة في خلق آدم عليه السلام أن إبليس كان يطيف بجثته قبل نفخ الروح فيها [٥] فضلاً عن الجار والمجرور في سورة البقرة:"إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً "، وفي سورة الحجر "لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ"، وكذلك فإن ظاهر

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٥١/١٤

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ٦٩/١٤

(٣) الجامع لأحكام القرآن، أبوعبد الله القرطبي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م، ٢٧/١

(٤) التحرير والتنوير- الطاهر بن عاشور، ٥٢/١٤.

(٥) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهر، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م، ١٣٠/١

نظم الآيات من سورة "الحجر" يشير إلى أن الملائكة المخاطبون بمعلومة الخلافة هم الملائكة المأمورون بالسجود،

وهذا يدل على أن إبليس المتوعِّد كان يعلم بأمر الخلافة، وهو علم يشعره بمحدودية قدرته على الإغواء، فأمر الخلافة مفروغ منه، فقد وقع في نطاق الإخبار الإلهي الواقع لا محالة. قال ابن كثير:"إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ" ... فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم الصديقون والشهداء، والصالحون والعباد، والزهاد والأولياء ..." (١)

هذا الشعور جعله يستثني: "إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ"، وما نبع هذا الاستثناء إلا من يقين بأن هذا الخليفة بين صلاح وفساد، فليس كله صالحاً، ولكن نصيبه منه محدود.

الذكر التاريخي الثاني للصراط:

قال الله تعالى:﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧ ﴾ [الأعراف: ١٦ – ١٧] .

ما نزال مع البداية الأولى في الحوار بين المولى سبحانه ولعينه إبليس، ففي قوله (صِرَٰطَكَ) دليل على معرفته بالمعهود الذي كان مبهماً، فقد عرفه به وصف المولى له بأنه خاص بعباده الذين لا سلطان له عليهم، فيخرج إبليس من وسيلتي الإغواء والتزيين لوسيلة ثالثة هي القعود،

قال الطبري:"وإنما أخبر عدو الله أنه يقعد لهم صراط الله المستقيم، ولم يخصص منه شيئا دون شيء ... ؛لأن الخبيث لا يألو عباد الله الصد عن كل ما كان لهم قربة إلى الله" (٢)

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م، ١١٦/١

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م، ٩٤/١٠

وقد نظرنا في الذكر الأول للصراط محيلاً على بداية الصلة بينه وبين الإنسان، فأين النهاية؟

بالعودة لسياق سورة الحجر حيث الذكر التاريخي الأول للصراط سنجد ارتباطاً بين البداية والنهاية عبر مبدأ التناسب:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝٤٢ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ۝٤٤ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦ ﴾ الحجر: ٣٩ - ٤٦

قال البقاعي: ولما ذكر الكافرين وما جرهم إلى الضلال، وجرأهم على قبائح الأعمال، ذكر المخلصين فقال- مؤكداً لإنكار المكذبين بالبعث: "إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ" أي العريقين في هذا الوصف، والمتقي: من جعل الإيمان بإخلاصه حاجزاً بينه وبين العقاب" (١) .

وعن طريق تأثير السياق ودوره في تفسير القرآن نستطيع الربط بين العاقبتين والحوار بين المولى وإبليس، فللتناسب بين الآيات دور في تفسير القرآن الكريم (٢)

يذكر الصراط ثم يأتي بعده ذكر المآلين، إنه سياق يختصر التاريخ العقدي البشري بين بداية ذكر الإنسانية في القرآن ونهاية ذلك الذكر بالمآلين المرتبطين بالسلوك العقدي والاجتماعي، فقد ذُكرت جهنم أولاً لاقتضاء السياق في مقام توعد إبليس وأتباعه من الغاوين: "إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝٤٢ وَإِنَّ

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٠م، ١١/ ٦٣.

(٢) انظر قواعد الترجيح عند المفسرين، حسين بن علي الحربي، دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م، ص ١٢٧.

جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ" فمسار الغاوين يؤدي إلى جهنم. ومسار المخلصين يؤدي إلى الجنات والعيون إِنَّ "إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ" فمن ثمرات الإخلاص الأخروية النجاة من العذاب(١)

بذا تظهر أمامنا البداية الأولى المتمثلة في الذكر التاريخي الأول للصراط فهي البداية الأولى لأنها تسبق ذكر كل أحداث الدنيا الواردة في الكتاب الحكيم، وتصحبها النهاية الأولى لأنها حملت العاقبتين: الجنة والنار للمسارين: مسار الرحمن ومسار الشيطان. فهاتان هما البداية الأولى والنهاية الأولى.

وهناك سياقات أخرى تحمل تناسباً بين الصراط والعاقبة، ففي سورة الحج: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحج: ٢٣ – ٢٤]

فهي هداية دنيوية أدت بهم إلى الجنة، وفي سورة الأنعام:﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٦ – ١٢٧]

إنه سياق أخروي يقدم له بذكر الصراط والآيات المفصلة لأيلولة المؤمنين إلى دار السلام، والمدخل المؤدي لتلك الأيلولة برابط الضمير المجرور باللام " لَهُمْ" أي للقوم الذين يذكرون. إضافة للارتباط اللفظي الصريح فقد ورد في صورة تشابه لفظي: هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ - وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا

ليس في القرآن ذكر صريح بربط مباشر للبداية الأولى بالنهاية الأولى، فليس هناك ذكر للقسم الشيطاني بالإضلال، بعده توضيح؛ لأن المستجيب للإضلال سيؤول أمره إلى النار، وأن المستجيب لنداء الصراط المستقيم سيؤول أمره إلى الجنة، بل تجد الارتباط بين المسارين والمآلين، حيث تذكر الآيات

(١) انظر موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: الإخلاص، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، ١٤٤٠هـ، المجلد الثاني، ص ١٣٤.

المسارين، بطريقة تحتاج منك إلى تفكر لتستخلصها، هي عزة الكتاب الحكيم تجعل بلوغ معانيه عزيزاً على غير طالبه، قريباً للمتدبر بعقله وقلبه. وهذه لبنة أخرى في لبنات بناء الإنسان عبر مفهوم المسار المجازي.

أما الارتباط غير المباشر بين الصراط والنار فنجده في سورة يس:

قوله تعالى: ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾ [يس: ٥٩ – ٦١].

فالمشار إليه الدنيوي يذكر مرة أخرى في أحداث الآخرة، مما يؤكد أن المشار إليه هو نفسه، إنه نفس المعهود الذهني في خطاب المولى جل وعلا لإبليس، فهذا مصير أولئك الغاوين الذين نجح إبليس في إضلالهم، والرابط هو قوله تعالى في سورة سبأ:﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١ ﴾ [سبأ: ٢٠ – ٢١]

أما تصديق إبليس ظنه فقد ورد بأنه بعد إغوائه لآدم "قال: إذا أصبت من الأبوين ما أصبت، فالذرية أضعف وأضعف. وكان ذلك ظنا من إبليس" (١)

وآيات سورة سبأ تبني معرفة إنسانية بذلك العدو عن طريق درس عملي يتمثل في عاقبة دنيوية لمتبعيه من الغواة الذين صدق فيهم ظنه. فقد حملت تعريفاً بالعدو وبمآل طاعته واتباعه، وهي كذلك تبني معرفة بعاقبة السير على الصراط.

البداية الثانية: اتقاء العداء:

وتتمثل في الفاتحة مفتتح الكتاب الخاتم، وتصحبها النهاية الثانية ممثلة في سورة الناس، فنحن معهما أمام بداية المصحف وختامه، ولنبدأ بالحديث عن الفاتحة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥١٣/٦.

التي لها عدة أسماء منها أم الكتاب فهي التي "يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة"،

وقال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم {الحمد لله رب العالمين} [الفاتحة: ٢] "هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته" (١)

وقال ابن حجر: "سميت أم الكتاب؛ لأن أم الشيء ابتداؤه وأصله" (٢)

وقال أبو عبيدة:" وهى أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف قبل سائر القرآن، ويبدأ بقراءتها قبل كلّ سورة" (٣)

وقال الماوردي:"فأما تسميتها بأم القرآن فلتقدمها وتأخر ما سواها تبعاً لها، صارت أماً لأنها أمته أي تقدمته" (٤) .وسميت أيضاً سورة الدعاء، وسورة السؤال، وسورة تعليم المسألة. (٥)

وهاهنا ينفتح باب التساؤل: لماذا سميت بكل تلك الأسماء، ولماذا كانت فاتحة يبدأ بها في المصحف والصلاة؟ تحثنا الأحاديث والاثار عن فضلها، فعن الحسن أن الفاتحة حوت كل علوم الكتب السماوية (٦)

وقال ابن عاشور: "هذه السورة وضعت في أول السور لأنها تنزل منها منزل ديباجة الخطبة أو الكتاب، مع ما تضمنته من أصول مقاصد القرآن" (٧)

وأضيفُ إلى تلك الآراء رأياً آخر وهو ذلك الارتباط بين البداية والمبدوء،

---

(١) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت الطبعة الخامسة، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م، ٤/ ١٦٢٤.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تعليق الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد الرحمن البراك، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ٦٢٩/٩.

(٣) مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى،تحقيق محمد فؤاد سزكين،مكتبة الخانجى، القاهرة، ٦/١

(٤) النكت والعيون، علي بن محمد بالماوردي، تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١/ ٤٦.

(٥) الاتقان، السيوطي، ٣٥١/١.

(٦) المرجع السابق، ٣٦٤/٣.

(٧) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ١٣٥/١.

فالبداية الزمنية لمسار الإنسان تحدثنا عن تقرير أمر الصراط وآدم في الجنة قبل هبوطه للأرض، وهاهي البداية الثانية تحملنا إلى أمر الصراط عبر صورتين: صورة ارتباط الفاتحة بالقرآن باعتبارها مختصراً ومفتتحاً للكتاب الخاتم، وصورة تسميتها بسورة السؤال، فما السؤال؟ إنه الهداية للصراط المستقيم. ليعود إلينا الصراط مرة أخرى في صلة الإنسان بالقرآن، ولنعد للحوار الأول، ألم يقسم إبليس على إضلالنا؟:(هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ)- تقابلها الفاتحة بسؤال الصراط المستقيم :لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ- تقابلها سورة الناس بالتعوذ من الوسواس الخناس

لقد ارتبط قسم إبليس بالإغواء بذكر الصراط مرة بقول المولى سبحانه ومرة بقول إبليس. فالقرآن يُفتتح بالذكر المباشر للصراط ويختتم بالذكر غير المباشر له بالتعوذ من ضده الشيطاني، وتلك إشارة واضحة إلى ما تضمنه القرآن ما بين البدء والختام من اتباع مسار الحق، وهو الصراط وتجنب مسار الشيطان:قال تعالى:﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٥٩ – ٦١].

وقد تضمن القرآن الكريم كل مقتضيات الاهتداء المنصوص عليها في تعليماته، وهذا ما يفهم بجلاء من خلال وجود مخاطبات النص القرآني بين السؤال والاستعاذة.وأول ذكر للصراط جاء في مفتتح سور القرآن والتعوذ من الشيطان الوسواس جاء في آخره. قال الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد أستجير (برب الناس ملك الناس) وهو ملك جميع الخلق: إنسهم وجنهم، وغير ذلك، ... وقوله: (إله الناس) يقول: معبود الناس، الذي له العبادة دون كل شيء سواه.

وقوله: (من شر الوسواس) يعني: من شر الشيطان (الخناس) الذي يخنس مرة ويوسوس

أخرى، وإنما يخنس فيما ذكر عند ذكر العبد ربه" (١)

السياق السابق لسورة الناس:

سبقت سورة الناس في خاتمة الكتاب الحكيم سورتا الإخلاص والفلق:

أما الإخلاص فقد رسخت فكرة الوحدانية للإله الحق سبحانه من لا إله إلا هو، ورسخت معها نفي كونه والداً وكونه ولداً، وهاتان الفكرتان تتواءمان مع المسار الآخر المذكور في سورة الفاتحة: ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ هؤلاء هم اليهود والنصارى الذين خلخلوا مفهوم التوحيد بفكرتي البنوة والأبوة: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ ﴾ [التوبة: ٣٠]

قال القرطبي في تفسير سورة الإخلاص :" وقال ابن عباس: لم يلد كما ولدت مريم، ولم يولد كما ولد عيسى وعزير. وهو رد على النصارى، وعلى من قال: عزير ابن الله" (٢)

فالأمتان المجعولتان نموذجين للمسار المضاد للصراط قد خرقتا عقيدة التوحيد متبنيتين فكرتي الأبوة والبنوة، فقبل التعوذ من الوسواس يرشد القرآن قارئه إلى العقيدة الصحيحة التي خالفتها الأمتان الناكبتان عن الصراط.

ثم يعرض لقارئ القرآن أمر الدنيا وما يعترض السائر على الصراط فيها من معاندة ومعاداة أهل الضلال، فتدله سورة الفاتحة على الاستعانة مصحوبة بالعبودية، ويعود خطاب القرآن بعد ذكر كل أشكال الاستعانة بمنزل القرآن ليدل قارئه على الاستعاذة ختاماً كما دله على الاستعانة بدءاً.

قال البقاعي: لما افتتح سبحانه وتعالى هذا الذكر الحكيم بالهداية في قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم ... وذلك أول منازل السائرين، وختم بتقرير

(١) جامع البيان، الطبري، ٧٥٣/٢٤

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٢٢٧/٢٠

أمر التوحيد ... وذلك هو نهاية المقامات عند العارفين، فتم بذلك الدين، وانتهى سير السالكين" (١)

"مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ" يحملنا على النظر في مفهوم التوكل فهو يقترن بالخلق في قوله تعالى:

"ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ" الأنعام.

وقوله:﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ ﴾ [الزمر: ٦٢].وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٦٢ ﴾ [غافر: ٦٢]

هكذا يصحح القرآن العقيدة ويوجهها إلى رب العالمين وحده، ويبين له ما يجب أن يترك ويفعل.

(١) نظم الدرر، البقاعي، ٤٠٦/٢٢

المبحث الثالث: الفرق اللغوي بين الصراط والسبيل

أول ما يصادفه الناظر في ذلك الفرق هو وقوعهما مجرورين بالأداتين (على، وفي)، فليس في القرآن كله "في صراط"، وليس فيه "على سبيل"،

ولنقف أولاً عند الصراط:

مواضع الاستعلاء (على صراط): ورد ذكر الصراط مجروراً بـ"على" في ستة مواضع من القرآن: (اثنان) لله سبحانه وتعالى:﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود: ٥٦]

قال القرطبي: "والمعنى أن الله جل ثناؤه وإن كان يقدر على كل شي فإنه لا يأخذهم إلا بالحق. وقيل: معناه لا خلل في تدبيره، ولا تفاوت في خلقه سبحانه" (١) .وقال ابن عاشور: "لأنه متصف بإجراء أفعاله على طريق العدل والتأييد لرسله" (٢)

وآية سورة هود ترتبط بآية سورة النحل، فلا يمكن فهم إحداهما منعزلة عن الأخرى:﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [النحل: ٧٦].

وللمفسرين في هذه الآية عدة أقوال، يهمنا منها هنا قولهم إنه مثل ضربه الله لنفسه سبحانه وللصنم، قال البغوي:"هذا مثل الأصنام لا تسمع ولا تنطق ولا تعقل، وهو كَلٌّ على مولاه: عابده، يحتاج إلى أن يحمله ويضعه ويخدمه، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل، يعني الله فإنه قادر متكلم يأمر بالتوحيد، وهو على صراط مستقيم، قال الكلبي: يعني يدلكم على صراط مستقيم" (٣) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣٣/١٠

(٢) التحرير والتنوير، ١٠١/١٢

(٣) معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق محمد النمر وعثمان ضميرية وسليمان الحرش، دار طيبة، الرياض، ١٤١١هـ، ٣٣/١٤

ويربط ابن القيم بين الآيتين، يقول: "ويخبر أنه سبحانه على الصراط المستقيم، وهذا في موضعين من القرآن في هود والنحل ... ودلالته لنا على الصراط هي من موجب كونه سبحانه على الصراط المستقيم، فإن دلالته بفعله وقوله وهو على الصراط المستقيم في أفعاله وأقواله فلا يناقض قول من قال إنه سبحانه على الصراط المستقيم" (١) .

فالمولى سبحانه على الصراط لتبيينه ولأنه سبحانه نور السماوات والأرض، ولا هداية إلا به.

واثنان للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ ﴾ [يس: ٣ – ٤].

قال ابن عاشور:والمقصود منه: الإيقاظ إلى عظمة شريعته بعد إثبات أنه مرسل كغيره من الرسل. وعلى للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى التمكن" (٢)

ويرى الزمخشري أن المراد بالآية " إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت" (٣)

وهذا يعني سنته صلى الله عليه وسلم، وكل ما أمر به من الفعل والكف عن الفعل.﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣ ﴾ [الزخرف: ٤٣]

قال السعدي في تفسيرها:موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وهذا مما يوجب عليك زيادة التمسك به والاهتداء إذا علمت أنه حق وعدل وصدق" (٤)

ومجمل ما يفهم من الآيات الأربع من استعلاء المولى سبحانه واستعلاء الرسول صلى الله عليه وسلم أن المسلم الطالب لهداية الله إلى الصراط مأمور بطاعة الله وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، فلا اهتداء إلا بهما.

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، ٤٢/١.

(٢) التحرير والتنوير، ٣٤٦/٢٢

(٣) الكشاف، الزمخشري، ص٨٩٠

(٤) تيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن السعدي، ص٧٦٦

واثنان لسائر المهتدين إلى الحق:﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩ ﴾ [الأنعام: ٣٩]

أما الموضع الأول فمحل خلاف بين القدرية وأهل السنة، والأمر أبسط من تعقيدات القدرية، فلو رجعنا إلى سياق البداية الأولى: " إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ "، فإلى أي الفريقين يرجع المضلل؟ وإلى أيهما يرجع المجعول على الصراط المستقيم؟ والذي يهم المؤمن أكثر هو سؤاله لنفسه: مع أي الفريقين أنا؟ وحبه أن يكون مجعولاً مع أهل الصراط.

وهذا ما علمه إياه ترديد سؤال الصراط في كل ركعة. فالجواب وحسم الأمر في سورة الفاتحة (ولعبدي ما سأل)، الجواب ليس في متاهات الجدال.

قال الله تعالى:﴿ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبّٗا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيّٗا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٢ ﴾ [الملك: ٢٢].

إنها المقارنة بين النموذجين،

قال الزمخشري:"يمشى معتسفاً في مكان معتاد غير مستوفيه انخفاض وارتفاع، فيعثر كل ساعة فيخر على وجهه منكباً، فحاله نقيض حال من يمشى سوياً، أى قائماً سالماً من العثور والخرور" (١) .

ويلفت النظر أن موضعي الاستعلاء الخاصين بسائر السائرين على الصراط يحويان نموذجي الهداية والضلال، فهما يحيلان على البداية الأولى، وينطبق عليهما كل ما قيل في البداية الثانية، وأولئك السائرون إنما ساروا بنور الله الذي هو سبحانه على الصراط ورسوله أيضاً على الصراط: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣ ﴾ [الشورى: ٥٢ – ٥٣]

(١) الكشاف، الزمخشري، ص ١١٢٧.

الله سبحانه وتعالى، وكتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم، هكذا تنبني عقيدة المسلم، بعبادة الله وطاعة رسوله واتباع كتابه في أوامره ونواهيه.

(في سبيل– عن سبيل) :

ليس في القرآن كله صد صراط الله، بل الصد عن السبيل، وليس في القرآن كله مسار على سبيل الله، بل في سبيل الله، فما المراد بالسبيل، قال ابن فارس:

السين والباء واللام أصل واحد يدل على إرسال شيء من علو إلى سفل، وعلى امتداد شيء ... والممتد طولا: السبيل، وهو الطريق، سمي بذلك لامتداده" (١).

ولم يرد في القرآن الكريم أن السبيل مستقيم، على عكس الصراط، وذلك لأن الصراط إيجابي فقط، أما السبيل فقد ورد على كليهما،

وتأمل قوله سبحانه تعالى:﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقد فسرها الرسول صلى الله عليه وسلم:

عن أبي وائل، عن عبد الله، قال: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا فقال: «هذا سبيل الله» ، ثم خط عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطوطا فقال: «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها» ،

ثم قرأ هذه الآية: ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل﴾ [الأنعام: ١٥٣] فتفرق بكم عن سبيله" جامع البيان، ٦٧١/٩.

فهناك سبل للشيطان، وسبيل واحد لله، خاطبه به حملة العرش:

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ [غافر: ٧] .

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ص ٤٨٢

وقوله:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [النساء: ٧٦] .

وقوله :﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]

أما الصراط فلن تجد إلا صراطاً واحداً في القرآن كله، ولعل هذا ما يبين العلة وراء ما مر بنا من اختيار لفظ معبر عن المسار المجازي الإيماني الرحماني لفظاً لا جمع له في لغة العرب، أما السبيل ففيه القتال كما فيه الإنفاق، والضرب في الأرض: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ [النساء: ٩٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقوله:﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].إن السبيل يتميز بالتفاعلية الحياتية، ويحمل دلالات حركية تشبه المعاش الأرضي لإنسان، أما الصراط فلا يشعرك أنه مسار فيه شيء من المادية أو الصخب، والحركة فيه لينة سهلة،

وللتفريق بين الأداتين (على، وفي) تأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبأ: ٢٤].فقد جاء الهدى مجروراً ب"على"، والضلال مجروراً ب"في" وذلك "لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه

لا يدري أين يتوجه" (١)

لذا ليس في القرآن كله "في صراط"، فالاستعلاء الذي مر بنا يمثل صورة نموذجية للمبدأ الحركي المتمثل في المسار المجازي.

وأمر آخر: فليس في القرآن كله عن صراط، إذ ليس فيه صد عن الصراط، وهذه النقطة تذكرنا بالمحاولة الفاشلة من إبليس "لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ "، وهاهنا محذوف أشار إليه النحاة البصريون والكوفيون، قال الطبري:

"فقال بعض نحويي البصرة: معناه لأقعدن "لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ "، كما قال:" توجه مكة"، أي إلى مكة ... وقال بعض نحويي الكوفة، المعنى، والله أعلم: لأقعدن لهم على طريقهم، وفي طريقهم" (٢)

فالحديث هنا عن ضعف سلطان إبليس عبر إقرار لغته بذلك الضعف فهو لم يجرؤ على أن يستعلي على الصراط، فأصحاب الصراط لا سلطان لإبليس عليهم، لذا فهو حين يعلم بحدود إضلاله التي لا تدخله إلى نطاق الصراط يكرس مساعيه للصرف عن الصراط، لذا يتحول إلى الصد عن السبيل:

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النمل: ٢٤].وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٤٥]

فالسبيل يتعرض صاحبها للصد عنها، وأعداؤها يبغونها عوجاً، أما الصراط فليس هناك من يملك أن يصد عنه السائرين، ولا يبتغى له العوج.

إن بناء الإنسان من خلال مفهوم المسار المجازي ببناء شديد الدقة، يعينك على التعرف على دقته التتبع الدقيق للتراكيب التي يتخذها اللفظان الرئيسان الواردان في التعبير عن ذلك المسار المجازي، فالسبيل موضوع ليعبر عن حركية وصخب وفيه الموت والقتال والإنفاق والهجرة، أما الصراط فهو خالص لله

(١) الكشاف، الزمخشري، ص ٨٧٤.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ص ٨٧٤.

صراطاً واحداً لا ثاني له في عقيدة ولا في سلوك ولا لغة. وإن لغة القرآن تبني مخاطبيه من مسلمين وغير مسلمين على نمط لغوي يتميز بالدقة الدلالية الناظرة إلى طبيعة حياة الإنسان بين طابع حياتي عام يصيب فيه ويخطئ، ويتعامل، وينجح ويخفق، فتسمي لغة القرآن كل توجيه يتلقاه المسلم في هذا النطاق الحياتي المادي بالسبيل.

وكذلك فإن هذا الإنسان يعبد ويتقرب ويخلص دينه لله، وهذا السلوك العقدي سلوك يتميز بالروحانية والخلوص لله، وهذا ما وعاه إبليس قبل الإنسان حين عبر عن الفارين من سلطانه إلى جوار الله بالمخلصين.

لذا فإن القرآن عبر المسارين المجازيين يلفت نظر مخاطبه إلى أنه متى وجد لفظ السبيل فعليه أن يتهيأ لتلقي توجيه يتعلق بالحياة وطبيعتها الصاخبة بين الصد والدماء والموت والقتل، وكذلك بين الهجرة والإحسان والجهاد والإنفاق.

الخاتمة والتوصيات

١- انبنى جزء كبير من تعاليم الدين على مبدأ المسار المجازي، فقد مثل مرتكزاً أساسياً للعقيدة والسلوك، ومن ثم فهو ذو أثر مؤكد في بناء شخصية الإنسان المسلم.

٢- يستقطب المسار المجازي غير المسلم حين يسخر اللغة لتضع أمامه بناء يسهل التعامل معه مجسداً في البدايتين اللتين عبرهما يسهل استيعاب مبدأ المسار المجازي، فحين يريد غير المسلم أن يتعرف على الإسلام فهو سيلجأ للقرآن ليعينه على هذا الفهم، ومفتتح القرآن هو سورة الفاتحة التي ترسخ في عقله فكرة المسار المجازي.

٣- لفظ الصراط لفظ عربي أصيل، وقد دلت النظرات السابقة فيه لدى المفسرين واللغويين على أنه لفظ لا جمع له في استعمال العرب رغم إقرار أولئك الناظرين بوجود قياس لصياغة ذلك الجمع، وقارئ القرآن سيدرك أن الصراط في القرآن صراط واحد لله وحده، وأن اللغة قد أيدت عبر توحده عقيدة التوحيد، حينها سوف يتأسس في عقله ووجدانه أن المسار الموسوم بهذا الاسم حقيق بالوقوف عنده واتخاذه منهجاً عقدياً وسلوكياً.

٤- يبدأ الصراط في القرآن الكريم بداية،

أولاهما مع أول ذكر تاريخي له مع الحوار بين المولى سبحانه ولعينه إبليس، وينتهي بالإنسان في جنة أو نار،

والثانية تبدأ مع أول سورة في ترتيب المصحف وهي الفاتحة التي يسأل بها المسلم ربه الهداية للصراط، وختتم المصحف بسورة الناس التي يتعوذ فيها المسلم من الوسواس الخناس الذي أقسم على القعود له على الصراط المستقيم.

٥- لم يترك المفسرون والدارسون للغة القرآن عموماً من أمر الصراط شيئاً إلا تناولوه، فإن ندَّ عنهم أمر علمي فما هو بما ينقص من شأن جهودهم، بل هو

مما يؤكد أن عجائب القرآن لا تنقضي، وأن الأمة موعودة بجديد من المبادئ التي يخرجها الناظرون في الكتاب العزيز يوماً بعد يوم.

٦- المسار المجازي ذو شقين:

-شق عقدي خالص لله سبحانه، يتبع به المسلم عقيدة تنجيه من الضلال والهلاك وهو الصراط، وهذا الشق من شأنه أن يمثل بناءاً لعقيدة المسلم ومبيناً للباب الذي يطرقه غير المسلم ليتعرف على الإسلام.

-وشق سلوكي يبني منهج الإنسان المسلم في التعامل مع الحياة بطابعها الصدامي أو طابعها التسييري اليومي.

٧- لذا يظهر لنا مفهوم السبيل باعتباره مفهوماً مفارقاً لمرادفه الصراط في طبيعته الصدامية المادية، وملتقياً معه في أن كليهما يجسدان متكاملين بناء لعقيدة المسلم وسلوكه، ويؤسسان شخصية تعيش بالله ولله.

٨- لم تبح اللغة القرآنية بكل أسرارها في أمر المسار المجازي، فهناك الكثير مما يمكن أن يقال عن مرجعيات المسار المجازي ومؤدياتها الدينية والدنيوية.

التوصيات:

التوصية الأولى: مغادرة التفسير الموضوعي لجزئية الدوران على المنهج الوصفي، فما الذي يضير أولئك الباحثين إن تعمقوا منقبين عن مداخل تحليلية تكشف كثيراً من كنوز القرآن.

التوصية الثانية: تأسيس كيان علمي بهدف للضبط العلمي لمخرجات النظر في الخطاب القرآني في بحوث وآراء من اعتلوا منابر الإعلام الذي دخل كل بيت، وانتهك حرمة كل فن.

هؤلاء المغربون في مقالهم يجب التصدي لهم عبر كيان علمي قانوني التأسيس يتوافق عليه المسلمون، وينتدبون له علماءهم الربانيين ليحكموا على ما جاء

من كل متحدث عن الكتاب العزيز، ويقوّموا ما اعوج من الفكر الذي له من التأثير على بناء شخصية المسلم ما ليس يخفى.

فرغت بذلك من بحث متواضع راجياً من العزيز الرّحيم أن يتقبل ما كان فيه من الصواب، وأن يعفو ما كان مني فيه من خطأ أو تقصير.

والشكر والامتنان لمركز مكة العالمي للهدى القرآني، وللقائمين على أمر المؤتمر المبارك، نسأل الله لهم العون والتيسير وإجزال الأجر.

قائمة المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤٢٦هـ.

٢- اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية، ابن قيم الجوزية، تحقيق زائد بن أحمد النشيري، عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى.

٣- أصالة لفظ الصراط: أدلة وبصائر، أمين عبد الكريم، مجلة كلية الشريعة، جامعة القرويين، العدد ٢٠، ١٩٩٥م، صفحات: ٨٥-١٠٦

٤- الإفصاح في معاني الصحاح، يحيى بن هبيرة، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، الرياض.

٥- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية، تحقيق ناصر عبد الكريم العقل، دار اشبيليا، الطبعة السابعة، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٦- إعراب القرآن، أبوجعفر النحاس، تحقيق خالد العلي، دار المعرفة، بيروت الطبعة الثانية، ١٤٢٩، ٢٠٠٨م.

٧- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

٨- تحصيل نظائر القرآن، الحكيم الترمذي، تحقيق حسني نصر زيدان، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م.

٩- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٠- الحجة في القراءات السبع، الحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

١١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

١٢- الجامع لأحكام القرآن، أبوعبد الله القرطبي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

١٣- شرح طيبة النشر في القراءات، شمس الدين بن الجزري، تحقيق الشيخ أنس مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

١٤- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت الطبعة الخامسة، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

١٥- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

١٦- روح المعاني، شهاب الدين الألوسي، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

١٧- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تعليق الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد الرحمن البراك، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

١٨- قواعد الترجيح عند المفسرين، حسين بن علي الحربي، دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

١٩- الكشاف، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

٢٠- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٢١- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق محمد فواد سزكين، مكتبة الخانجى، القاهرة.

٢٢- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق عوض مرعب وفاطمة محمد أصلان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٢٣- منازل السائرين، عبد الله الهروي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٢٤- موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: الصراط، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، ١٤٤٠هـ.

٢٥- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٠م.

٢٦- النكت والعيون، علي بن محمد بالماوردي، تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية.

٢٧- الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري، تحقيق محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.